

بين التاريخ الجغرافي والجغرافية التاريخية للوطن العربي

مصطفى الحاج إبراهيم
الموجه الأول للجغرافية في وزارة التربية

مفهوم الوطن العربي : كان مفهوم الوطن العربي أو مصطلحه ، حتى عهد ليس ببعيد ، غريباً حتى على بعض المثقفين ، الذين لم يكونوا يدركوا حدوداً له ، أو مضموناً واضحاً ! هل هو الجزيرة العربية ؟ أو المشرق العربي أو آسية العربية ، أو دول الجامعة العربية التي نما عددها فأصبح ثلاثة أمثاله منذ انشاء الجامعة عام ١٩٤٥ ٢٠٠٠ ؟

صحيح أن الوطن يعني أرضاً من جهة ، وشعباً معيناً يقطنها ، من جهة أخرى . ولكن وعي حدود تلك الأرض كان من ثمرات السنوات القليلة الماضية ، مع تصاعد الوعي القومي العربي ، رغم أنه كان معروفاً منذ عهد بعيد ، أن هناك شعباً ، أو أمة تدعى العرب ، غير أن مدى انتشار تلك الأمة جغرافياً في الأرض ظل غامضاً ، وظلت معه حدود الوطن العربي غامضة أيضاً ومتباينة في درجة وعيها بين قطر عربي وآخر . وساعد في اختلاط تلك الحدود ، وجود نطاق محيط بالوطن العربي ، يشارك سكانه العرب في الاسلام الذي كتابه القرآن ولغته العربية ، والذي عمل العرب أنفسهم على نشره فيما حولهم قريباً أو بعيداً .

لذا وحتى الحرب العالمية الأولى ، وكان قد مضى على النهضة القومية العربية الحديثة في المشرق العربي قرابة نصف قرن ، كان مسمى « البلاد العربية » هو السائد بين أهل المشرق ، لكنه كان قاصر المدلول . ففي المراسلات المتبادلة بين شريف الحجاز حسين ، نائباً عن العرب ، وبين بريطانية الممثلة لدول الحلفاء ، كانت حدود البلاد العربية ، المطالب

★ لا مجال هنا لشرح قد يقتضي الاسهاب لمدلولي التاريخ الجغرافي ، والجغرافية التاريخية المختلطين ، ويكفي ان اقول هنا ان البحث محاولة للجمع بين النظرتين : الجغرافية والحضارية ، للوطن العربي .

باستقلالها ، تشمل فقط جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ؛ اذ جعلت حدودها المحيط الهندي جنوباً ، وجبال طوروس شمالاً ، والبحر المتوسط غرباً ، وجبال زاغروس شرقاً . وهكذا تركت افريقية العربية بكاملها خارج الحدود المقترحة ، وعلى الأقل منها وادي النيل (مصر والسودان) ، وأقطار المغرب العربي .

زد على ذلك أن الثورة العربية الكبرى على العثمانيين - وفي اطار العزلة التي كانت مفروضة على الأقطار العربية المختلفة - لم تلق صدى تجاوب كبير في تلك الأقطار الواقعة في افريقية . ومرد ذلك الى الاختلاط الآنف الذكر بين ما هو عربي وما هو مسلم . ولذا ظل ما وجد من تعاطف محصوراً في بعض الأوساط المستنيرة ، حتى أننا وجدنا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وهزيمة الدولة العثمانية ، وبين عرب مصر والمغرب العربي ، من ينشد لمصطفى كمال أتاتورك « يا خالد الترك جدد خالد العرب » . ويبدو أنه لم يكن قد وصل الى علمهم أو وعيهم ، أن ذلك الرجل كان من غلاة المتعصبين ضد العرب في جمعية الاتحاد والترقي ، والمخطط للطغيان على الحدود العربية في كيليكية والجزيرة العليا ، والخالع عن نفسه رداء الحضارة الاسلامية ، لأن نسيجه كان عربياً .

ورغم مرور وقت غير قصير على ذلك العهد ، فما زالت آثار الاختلاط قائمة بين ما هو عربي ، وما هو مسلم ، لدرجة أن العربي اعتبر مسلماً ، والمسلم عربياً في كثير من الأقطار العربية ، وحتى الأجنبية .

أما في مجال المصورات الجغرافية للوطن العربي ، فكانت تعكس من قريب أو بعيد الأوضاع آنفة الذكر ، فتختلط مع خرائط العالم الاسلامي . ويجدر التنويه هنا بالجهود العلمية والتربوية التي بذلت في سورية ، على مستوى التعليم الجامعي وما قبل الجامعي ، لوضع الملامح الأولى لمصور حدود الوطن العربي خلال الخمسينات من هذا القرن ، وفي نطاق انبعاث الوعي القومي العربي ، والذي جرى تبنيه في الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر ، ثم أخذ ينتشر الى الأقطار العربية الأخرى بدرجات متفاوتة من الوعي ، . ولذا فما زال مطلوباً من المؤسسات القومية والسياسة في الوطن العربي ، اصدار مصور معتمد للحدود العربية ، ما دام الهدف القومي الرئيسي للعرب اقامة وحدة عربية شاملة ، في نطاق دولة عربية كبرى . نقول ذلك لأننا ، حتى هذا اليوم ، نجد بعض الخرائط الخاصة بالوطن العربي لا تدخل موريتانية والصومال واريترية ضمن

حدود ذلك الوطن ، مع أن الأولى والثانية دخلتا الجامعة العربية ، وكثير من تلك الخرائط يتجاهل أيضاً أن مناطق الجزيرة العليا وكيليكية والاسكندرونة وعربستان « الأحواز » ، كلها واقعة ضمن حدود الوطن العربي . ونسي العرب تاريخهم الذي يؤكد أن أهم مدن الجزيرة العليا وكيليكية ، مثل مرعش وطرشوس والمصيصة والهارونية وديار بكر ، وغيرها ، كان أجدادهم قد أسسوها لحراسة التخوم ، التي كانت حمايتها إحدى الواجبات الأساسية للدولة العربية ، سواء في المشرق أم المغرب .

من هنا كان الهدف الأساسي لهذه الدراسة لقاء أضواء على الحدود العربية عبر المكان والزمان ، على أساس من المعطيات العلمية ، لأننا نعتقد أن هذه الدراسة للحدود تقدم الاطار الضروري لجغرافية الوطن العربي وتاريخه ، كما تجعل مفهوم الوحدة أرسخ جذوراً ، إذ يستمد نسغه من تراب الأرض وحضارة الانسان في هذا الجزء الخطير من العالم .

حدود الوطن العربي :

سوف لا ننظر الى الحدود من حيث كونها خطوطاً مرسومة على الخرائط السياسية ، بل معالم وجود طبيعي وثقافي حضاري ، أسهمت في تكوينه عبر التاريخ - بمفهومه الزمني الواسع ، أي تاريخ الأرض ، وليس بمفهومه التاريخي الضيق - مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التي يمكن أن تقدم تفسيراً لكثير من الأمور الثقافية الفاضة للمنطقة العربية ، لا انطلاقاً من مذهب سياسي أو احساس عاطفي ، بل من وقائع جغرافية وتاريخية موضوعية ، كان مسرحها الأربعة عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة التي تشكل المساحة الراهنة للوطن العربي .

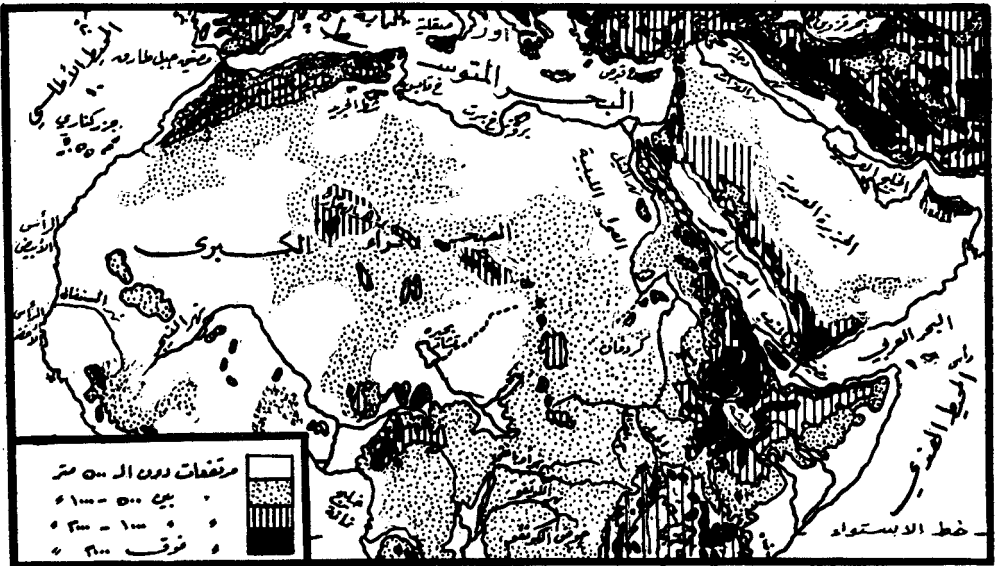
١ - العوامل الطبيعية :

لسنا من أنصار نظرية الحتم الجغرافي التي تجعل الانسان أسير العوامل الطبيعية ، ولكن يلاحظ ، من خلال التاريخ الجيولوجي المتأخر للرقعة العربية ، وما رافقه من تحولات في الأرض وفي المناخ ، أن هذين العاملين لعبا الدور المهدد للمسرح البيئي الذي نشط فيه الانسان حضارياً في المنطقة .

آ - ظهور الأرض الحادة أو الحدود الجغرافية : وقد حدثت نتيجة للتطورات الجيولوجية التي حدث معظمها في عصور سابقة لظهور الانسان (الذي لا يرجع وجوده حسب المعلومات الأخيرة الى أكثر من ثلاثة

ملايين عام) حيث توافر للعبة القديمة المنبسطة التي تتألف منها أرض الوطن العربي اليوم ، والممتدة من هضبة ايران شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً ، اطار جبلي وبحري في معظم الجهات ، في تناسق وتكامل ملفتين للنظر في مثاليتهما . ففي الشمال والشمال الغربي يمتد البحر المتوسط من مضيق جبل طارق حتى خليج مرسين ، حيث تؤلف جبال طوروس ، في الشمال منه ومن سهول كيليكية الساحلية مغللاً على شكل قوس يفصل بين الأناضول وباقي العتبة العربية ، يتعذر اجتيازه الا من الممرات المسماة بوابات كيليكية . ثم تستمر أقواس الجبال الطوروسية حتى منطقة كردستان ، بصورة تحجز شمالي بلاد الشام والعراق عن الأناضول وهضبة أرمنية ، ويكتمل القوس الهلالي الشكل ، بامتدادات جبال زاغروس وفارس ، بين العراق والخليج العربي من جهة ، وايران من جهة أخرى ، حتى نبلغ مضيق باب السلام (هرمز) حيث تنفلق الجبال من جديد على الساحل وتصبح مياه المحيط الهندي حداً طبيعياً من الجنوب الشرقي للوطن العربي .

تلك العوائق الجبلية آنفة الذكر شكلت في الواقع حداً قلما تعدته الدول أو الامبراطوريات التي قامت عند التخوم الشمالية للوطن العربي ،



الوضع التفريسي العام للوطن العربي

أو التي بلغت في توسعها من الجنوب الى الشمال أو من الشمال الى الجنوب، مثل الآشوريين والبابليين والتدمريين والدولة العربية الاسلامية ، وما تفرع عنها ، وحتى الدول الخارجية الأجنبية مثل الحثيين ينطبق عليها الشيء نفسه . وعندما تعدى العرب المسلمون هذه الحدود في نشر دعوتهم ، لم يستقروا وراءها الا لفترة قصيرة ، وبأعداد غير كبيرة .

أما من الغرب ، فالمحيط الأطلسي ما زال يشكل الحدود منذ أواخر الزمن الجيولوجي الثالث ، من مضيق جبل طارق (رغم أن هذا المضيق أحدث عهداً) الى مصب نهر السنغال ، الذي ينبىء ببداية المنطقة المدارية، الى الجنوب من منطقة الصحراء الكبرى الافريقية .

أما الحدود الجنوبية للوطن العربي في القارة الافريقية ، فهي ذات وضع خاص، اذ تتأثر بالدرجة الأولى بالوضع المناخي الذي ساعد على خلق شريط انتقالي بين منطقة الصحراء الكبرى والمنطقة المدارية ، ويتمثل في نطاق نباتي سهوبي أو سبسي ، جاف ، ممتد من مصب نهر السنغال الى سفوح الهضبة الحبشية بحيث يطوقها من الغرب والشمال والشرق باعتبارها حداً أو عقبة تضريبية وعرة وشاهقة ، والقسم الأكبر من هذا النطاق الواقع في الاقليم السوداني الافريقي ، يدعى الساحل ، تشبيهاً له بالحد الفاصل بين البر والبحر ، لأنه هنا يفصل بين الأرض الصحراوية الجرداء ، والنطاق المداري الأخضر . ولا تخرج حدود الساحل عن هذا النطاق الا في حوض النيل حيث تندفع جنوباً مع النهر العظيم وروافده باعتبارها طريق اتصال وعبور ، حتى سفوح هضبة البحيرات الاستوائية ، وبذا اتصلت حدود سفوح هضبة البحيرات بحدود سفوح الهضبة الحبشية المذكورة آنفاً ، ويستمر خط الحدود مع السفوح الشرقية والجنوبية الشرقية لهضبة الحبشة حتى المحيط الهندي ، عند خط الاستواء ونهاية القرن الافريقي . وهنا يمكن القول أن الصحراء تلتقي عند هذا الحد بالمنطقة الاستوائية ، وهي التي تفسر اندفاع الحدود العربية حتى هذا الجزء النائي نحو الجنوب .

هذا النوع الافريقي من الحدود العربية ذات الطابع العشبي الجاف سهلت على سكان الصحراء من القبائل العربية التعمق في القارة جنوباً في اثر حيواناتهم من الجمال والأغنام والخيول ، حتى اذا اشتدت عليها الرطوبة المدارية أصبح اعتمادهم على الأبقار والماعز ، الى أن يبلغوا حد الغابة المدارية الاستوائية .

أما البحار الداخلية العربية التي تمتد بشكل أذرع داخل الأرض

العربية ، فتشكل عنصراً من عناصر الحدود العربية . وقد أخذت طابعها العربي عبر العصور ، رغم التسميات التاريخية المختلفة التي أطلقت عليها ، كالخليج العربي (الذي أطلق عليه العرب القدماء اسم خليج فارس أو بحر فارس ، باعتباره مؤدياً الى تلك البلاد وليس باعتباره جزءاً منها) ، والبحر الأحمر الذي أطلق عليه اليونانيون قبل الاسلام اسم « الخليج العربي » أيضاً . ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك ، لأن القبائل والشعوب العربية ما زالت تنتشر على شواطئها منذ عصور مفرقة في القدم . ويزيد الأمر وضوحاً أن تلك البحار كانت في الماضي بحيرات أو بحاراً داخلية مغلقة باليابسة ، وكان الانسان يعبر حولها من مكان الى آخر على معابر برية ، أو برازخ ، كما في باب المنذب ، وباب السلام (مضيق هرمز) ، وبرزخ السويس .

ب - توافر شروط فلكية مناخية مميزة : يمتد الوطن العربي حالياً بين درجة عرض ١° جنوب خط الاستواء ودرجة عرض ٣٨° في شماله ، ويقع في غربي الكتلة القارية للعالم القديم (أوراسية وافريقية) ضمن عروض متوسطة هامشية بين منطقتين مناخيتين رئيسيتين : المعتدلة في الشمال والحارة في الجنوب ، مما جعله يتعرض في فترة العصر الجليدي الى حادثة مناخية هامة ، لا سيما في الفترة الواقعة بين عشرين وعشرة آلاف عام قبل الميلاد . ففي الوقت الذي كان فيه الجليد يغطي نطاقاً واسعاً من شمال قارة أوراسية وأواسطها حدث نوع من التزحزح في الأقاليم المناخية الكبرى للأرض ، وأصبح المناخ المسيطر على منطقة الوطن العربي شبيهاً بالمناخ المحيطي الحالي المتمثل في أوربة الغربية والوسطى . ويدعو الجيولوجيون العصر الذي ساد فيه هذا المناخ على العروض الوسطى بالعصر المطير - المقابل للعصر الجليدي في العروض العليا - حيث كان فيه المطر مدراراً والأودية الجافة الحالية أنهاراً والسهول والهضاب مروجاً وسفوح الجبال غابات والمنخفضات بحيرات . والى ذلك العصر المطير يرجع الماء الباطني الذي اختزن في المناطق الصحراوية الراهنة والذي يدعى أحياناً بالماء الجيولوجي ، وقد دلت التحريات على أن سبعة عشر ألف عام انقضت مثلاً على المياه التي تختزنها صحاري شبه الجزيرة العربية ، كما أكد ذلك الوضع المناخي والمائي العثور في قلب الصحراء الكبرى على بقايا القواقع والأحياء المائية التي كانت تعيش في مياهها العذبة ؛ كالتماسيح وأفراس البحر .

وما أن بدأ الجليد بالذوبان والانحسار قبل نحو عشرة آلاف عام

نتيجة ارتفاع درجة الحرارة حتى وجدت منطقة الوطن العربي ربيعها الأول ، حيث قلت الأمطار وزاد الدفء ، وبدأت بواذر الجفاف الأولى التي تطورت بالتدريج الى الوضع الراهن حيث تحولت الأودية الجافة المطرية النظام في داخل الوطن العربي الى أودية جافة سيلية النظام ، وجفت البحيرات بالتدريج وتحولت عذوبتها الى ملوحة ، وتشكلت سهول الهلال الخصيب في أوسع مدلول لها من شمال الخليج العربي حتى شواطئ دلتا النيل ، كما تشكلت السهول الوسطى والدنيا من حوض النيل ، وتراجعت الخلجان البحرية الضحلة وحلت محلها السهول الساحلية والسهول الدلتاوية ، وتقهرت الغابات وجفت السباسب العشبية ، وسادت في البقاع الداخلية الكشبان الرملية ، وانسحبت قطعان الحيوانات نحو الجنوب تحت تهديد الجفاف ، وأخذت ترتسم المعالم المميزة الراهنة لجغرافية الوطن العربي ، وأصبح الانسان في هذه المنطقة الواسعة على أعتاب عصر جديد بعد أن واجه أكبر عملية تحد بيئي ، وهو يشهد تحول اقليمه من بيئة الغنى والوفرة الى بيئة الصعوبات الناشئة المتزايدة ، وأصبح الجهد البشري هو العنصر الأول في البيئة الجديدة .

٢ - العوامل البشرية :

أ - الثورة الانتاجية : في ذلك الوقت بدأ التحول الحاسم في حياة المنطقة العربية ؛ فالانسان المبعثر الذي كان يعيش في العراء على الجمع والالتقاط وعلى الصيد والقنص أخذ تحت تهديد الجفاف يقترب من المناطق الأوفر حظاً بشروطها المائية ؛ وهي ضفاف الأنهار الكبرى التي تتغذى منابعها من مناطق خارجية كالنيل ودجلة والفرات ، والتي تمثل العمود الفقري لسهول الهلال الخصيب . وغير بعيد عنها أيضاً استقر الانسان عند سفوح الاطار الجبلي الخارجي للوطن العربي سيما في الشمال الشرقي منه ، اعتباراً من الألف الثامنة قبل الميلاد . وفي الوقت الذي كان يتم فيه هذا التجمع والاستقرار البشري بعد التبعثر والتنقل الدائم بدأت حياة حضارية جديدة ، يمكن اعتبارها الثورة الانتاجية الأولى في التاريخ ، وهي حياة الزراعة والرعي أو تربية النبات والحيوان ، عند مواقع جديدة استقر فيها الانسان مثل أريدو - عبيد - أوروك - علي كوش - تل الصوان - جرمو - حسونة - أم الدباجية - (في الذراع الشرقي للهلال الخصيب) ومريبط - وتل الرماد - النطوف - أريحا - البيضة - الفيوم (في الذراع الغربي للهلال الخصيب) .

وتلا تلك المرحلة من نشوء القرى الزراعية اقامة المدن الكبرى في

الألف الثالثة قبل الميلاد : أور - لكش - سوزا - اشور - ماري - ايبلا - حماه - جبيل - مجدو - بيسان - عراد - تل ايراني - منف • وبعد ذلك بدأت تتشكل الامبراطوريات الكبرى في التاريخ : اكاد - عيلام - بابل « العمورية » اشور ، في الذراع الشرقي للهِلال الخصيب ، وايبلا « العمورية » وامبراطورية الفراعنة في الذراع الغربي للهِلال الخصيب • هذا عدا المراكز الحضارية الأخرى المتفرقة عند سفوح الجبال والهضاب أو عند المنافذ الجغرافية البرية والبحرية ، و مواقع الانتقال بين منطقتين إنتاجيتين متميزتين ، أو في السهول الصغرى ذات التربة الزراعية الغنية • ففي هذه المراكز قامت حضارات اليمن وبلاد الشام الداخلية والساحلية والمغرب ، وبلاد بونت ، وكوش •

ب - الثورة العمرانية ورسوخ الهوية الثقافية : أدت الثورة الانتاجية في مجالات الزراعة وتربية الحيوان وما رافقها من استقرار ، الى قيام ثورة في العمران البشري ، هي الثورة الحضارية الأولى في تاريخ البشرية ، تمثلت في نهوض صناعة الانشاء والبناء والأدوات ، ولغات التعبير والكتابة ، والعلم والفنون الأخرى من هندسة وفلك وتشريع ، وتأكد من خلالها الوجود الثقافي العربي القديم في كامل المنطقة التي يشغلها الوطن العربي اليوم ، وارتسمت بالتالي معالم حدود ثقافية مطابقة للحدود الطبيعية التي سبقت الاشارة اليها ، حيث أصبح الاطار الجبلي حدا فاصلا بين اللغة العربية (السامية) ومجموعة اللغات الهندية الأوروبية الواقعة فيما وراء ذلك الاطار • ويدل غنى اللغة العربية التي تمثل الجذر اللغوي لجميع اللهجات التي قامت فوق أرض الوطن العربي في الماضي ، على صلتها الوثيقة المزمدة بالبؤر الثقافية آنفة الذكر ، ان لم تكن هناك بؤر حضارية أخرى مندثرة لا سيما داخل الجزيرة العربية نفسها حيث لم يكشف النقاب عنها بعد • كما يؤكد ذلك الغنى من جهة أخرى التطور المستقل للغة العربية عن اللغات الهندية الأوروبية واللغات الأخرى ، التي ظلت تقتبس منذ عصور بعيدة أساليب الكتابة المعتمدة في المنطقة العربية سواء منها المسمارية والآرامية « السريانية » والكنعانية « الفينيقية » والسبئية ، قبل الاسلام ، والعربية بعده ، حيث استخدمت الأبجدية العربية لكتابة الفارسية والتركية والأردية ، وبذلك امتد أثرها شمالا وشرقا حتى الهند وتخوم

الصين ، بل استعيرت مفردات العربية بنسبة عالية لاستعمالها في تلك اللغات . ولم يقتصر الأمر على ما وراء الحدود الشرقية للوطن العربي ، بل حدث شيء مماثل ابان الدفع الحضاري العربي غرباً حتى بلغ حد كتابة اللغة الاسبانية اللاتينية الأصل بأحرف عربية ، كما اقتبست الاسبانية من العربية نسبة عالية أيضاً من مفرداتها تقدر بنحو خمس عشرة بالمائة . أما في القارة الافريقية فلم تواجه العربية لغة أجنبية مكتوبة الا في حالات نادرة ، كما في الحبشة ، ولذا ظلت على طول افريقية السودانية والشرقية لغة العلم والسياسة والادارة ، وتطابقت في حدودها مع حدود اندفاع القبائل الرعوية العربية جنوباً على عرض القارة بين مصب السنغال ومصب الزمبيزي عبر القرن الافريقي .

وان انتشار الاسلام السريع يدل على أنه وجد المسرح ممهداً امامه من الناحية الثقافية فوق رقعة الوطن العربي سواء في المشرق أو المغرب ، حيث كان الطراز الاجتماعي الرعوي - الزراعي سائداً لدى البربر والعناصر المغربية الأخرى سيادته لدى عرب المشرق ، هذا اضافة الى الأصول السلالية المشتركة للعرب وللبربر . ومن ذلك يمكن أن نفهم كيف أن العرب المسلمين أمرّوا عليهم قائداً بربرياً لفتح الأندلس هو طارق بن زياد ولما يكّد يمضي قرن من الزمن على ظهور الاسلام ، وكيف ازدهرت قرطاجة ، الكنعبانية الأصل الفينيقيّة المنبت ، وسط البيئة البربرية في الشمال الافريقي ، ولماذا رد ابن خلدون مؤرخ المغرب في القرون الوسطى أصول قبيلة من أكبر قبائل البربر ، وهي قبيلة صنهاجة ، الى جنوبي الجزيرة العربية .

وتأتي أهمية الاسلام الثقافية للعرب لا في تقديمه نظاماً متكاملاً للحياة الانسانية فحسب ، بل في ترسيخه الثقافة العربية في مختلف المجالات ، وسيادة اللغة العربية ، التي نزل بها القرآن الكريم . وأدى انتشار الاسلام خارج رقعة الوطن العربي الى تكوين حزام وقائي للمنطقة العربية كان بمثابة ردة لها ، خفف من أخطار التسرب الثقافي الأجنبي عبر الحدود بعد الاسلام ، مثلما خففت اللغة والثقافة الآرامية من تلك الأخطار قبل الاسلام ، وعلى الأخص في مناطق الاحتكاك القديمة مثل : عيلام قديماً - عربستان ، الأحواز حديثاً ، الكاشيون قديماً - الأكراذ حديثاً ، أورارتو قديماً - الأرمن حديثاً ، الحثيون والبيزنطيون قديماً - الأتراك حديثاً ، ولم تمنع الرقعة البحرية المحيطة بالوطن العربي شمالاً من الاحتكاك بين سكان الوطن العربي والشعوب الأجنبية ، وعن طريقها حدث أخطر خرق

للحدود الثقافية العربية في العصور الحديثة حيث لم يكن يوجد مثل ذلك الحزام الواقعي ، ونقصد به الصهيونيين في فلسطين والفرنسيين والاطاليين في المغرب العربي وليبية . وفي هذه الحالات حدث الغزو المباشر للأرض العربية على نطاق أوسع وأعمق مما حدث في عهود سابقة عندما وصل الفلسطينيون الى جنوب فلسطين الساحلي ، واليونان والرومان والفاندا الى سواحل افريقية العربية . ومن هنا فان الاستعمار الصهيوني في فلسطين الآن يمثل أكبر تحد واجهته المنطقة في تاريخها .

هذا ولما كان ما أشرنا اليه من تحولات أثرت في التاريخ العربي القديم والحديث يعود بقدر كبير الى موقع الوطن العربي وطرقه الطبيعية ، فاننا سنعمد الى تحليل أهمية هذا الموقع ومعابره كيما تكتمل عناصر الصورة في ماضي هذا الوطن وحاضره .

أهمية موقع الوطن العربي (جغرافياً وحضارياً) :

يعتبر عامل الموقع أبرز العوامل التي أثرت في تاريخ المنطقة . فأرض الوطن العربي جسر عظيم بين القارات الثلاث ، آسية وافريقية وأوربة ، متعدد المعابر والمنافذ ، ظلت له وظيفة مستمرة عبر التاريخ الطويل لأنها مستمدة من موقعه الطبيعي ، رغم أن تلك الوظيفة اتخذت أشكالاً ودلالات مختلفة حسب تغير الشروط البشرية فيه ومن حوله . ويمكن تحليل عناصر الموقع المؤثرة أولاً ، والطرق والمنافذ ثانياً ، على النحو التالي :

١ - الموقع الجغرافي وآثاره :

ان امتداد الوطن العربي كما سبقت الإشارة من المنطقة الاستوائية (درجة ١° جنوب خط الاستواء ، الى درجة ٣٨° شماله) أدى الى وقوعه ضمن المنطقتين الحارة والمعتدلة الحارة الشمالية ، وعلى عدد من درجات العرض يؤلف نصف عروض المنطقة المعمورة من نصف الكرة الشمالي . ورغم أن الصحراوات الحارة تشغل قسماً كبيراً من تلك العروض ، الا أن الشروط الطبيعية للعيش في الصحراء على حرجها مكنت من استغلال بواديه وأوديتها وجبالها وحمادها ودهنائها ، بوسائل ملائمة تكيفت مع تلك الشروط ، اذ كانت تعتمد على نوع حيوان مختار لبيئة معينة ، وعلى مزروعات يتفاوت اعتمادها على الري أو على المطر مستفيدة من أحواض نهريّة توافرت لها شروط الماء والتربة الغنية ، والجو الصالح للانتاج في جميع الفصول . كما وظف موقع الصحراء - ضمن الموقع العام

للوطن العربي وسط اتجاهات الطرق الطبيعية للنقل والتجارة براً وبحراً - في الوصل بين مراكز النشاط البشري في الجنوب والشمال أو في الشرق والغرب ضمن نظام اتخذت فيه واحات الصحراء قواعد على طول الطرق ، حيث برز التعاون والتناسق بين الحضر أصحاب التجارة وأهل المدر ، وبين البدو أصحاب الجمال والخيول أو أهل الوبر ، سادة الصحراء وخرّيطوها الذين يتولون نقل البضائع وحماية الطرق العابرة . وكنا نرى الجمل يتوقف حيث تبدأ السفينة أو يبدأ حيث تتوقف . ولم يكن عبثاً ما قيل عن الجمل من أنه سفينة الصحراء عند العرب ، إذ أن البحار العربية أيضاً وظفت خير توظيف في خدمة البيئة العربية ، ليس في النقل فحسب بل في استغلال مواردها من الأسماك واللؤلؤ والمرجان وغيرها ، في انسجام تام مع حياة البداوة الرعوية والواحة الزراعية في قلب الصحراء . وكثيراً ما كنا نرى البدوي أو ساكن الواحة ممن يقودون الجمال يستنبتون ثمرات الأرض في موسم من العام ويقودون مركباً أو يستخرجون ثمرات البحر من الأعماق في موسم آخر في رحلة صيف وشتاء أخرى ، قبل أن يعودوا أدراجهم محملين بها الى داخل الصحراء . والشواهد على دور البحر في حياة العرب ، الذين عرفوا بأنهم من سكان الصحراء ، كثيرة في القرآن الكريم . ولكن الذين كتبوا عن حياة العرب لم يدرسوا ذلك النشاط المتنوع الوجوه الرائع التناسق .

لذا نستطيع القول أن البيئة العربية ، على فقر قسم كبير من أجزائها استغلت استغلالاً واسعاً ، ولم يبق منها غير أجزاء محدودة من الصحراوات تفادها الانسان ولم تشهد نشاطه بسبب كثرة رمالها وشدة جفافها ، كالربع الخالي وبحار الرمال والعروق في الصحراء الكبرى .

وفي الواقع لو عدنا الى العوامل المؤثرة في تشكيل تلك الصورة آنفة الذكر لوجدنا ، من الناحية الجغرافية ، أن الوطن العربي يتألف من هضاب واسعة منبسطة قليلة الارتفاع تنتشر بينها الممار والسهول والمنخفضات والحفر التي تحتضن الأودية الكبرى والبحار الداخلية شبه المغلقة ، مما يخرجها بصورة واضحة عن تضاريس آسية الصغرى والوسطى المعقدة العالية ، كما يخرجها عن منطقتين أخريين معقدتين هما أوربة في الشمال ، والمناطق المدارية الرطبة في الجنوب ، وعما يصيب تلك المناطق من منخفضات جوية وأعاصير عنيفة عاصفة أو قاصفة ، ويخرجه فوق ذلك أيضاً عن مناطق المياه المتجمدة . وهذا ما جعله يلعب دور الجسر السهل المكشوف الحر بين القارات الثلاث براً وبحراً وجواً .

ويمكن تبين ذلك من الصور التي التقطتها المركبات الفضائية أو الأقمار الصناعية لمجمل الكرة الأرضية حيث ترسم عليها حدودها منطقة الوطن العربي كنافذة بين السماء والأرض ، في حين تلف الأجواء الأخرى تلبدات الغيوم ومراكز الاضطرابات الجوية .

من هنا نعلم لماذا اضطرعت على هذا الموقع ، الذي أصبح موقعاً استراتيجياً من الطراز الأول ، جميع القوى الخارجية منذ القديم ؛ من حثيين ويونان ورومان وفرس ، حتى العصر الحديث الاستعماري الذي ظهرت فيه القوى الغربية الأوروبية والأمريكية المعروفة . فجميعها سعت وتسعى للسيطرة على الطرق والمنافذ من جهة ، والثروات الباطنية ، ولا سيما النفطية منها ، التي دخلت كعامل رئيسي جديد بين العوامل المستجدة الأخرى ، والتي كان أهمها بروز المعسكر الاشتراكي على مسرح السياسة العالمية في مواجهة المعسكر الرأسمالي والامبريالي ، وكون الحدود الشمالية الشرقية للوطن العربي لا تبعد أكثر من أربع مائة كيلو متر عن حدود الاتحاد السوفييتي رأس المعسكر الاشتراكي ، بالإضافة الى تحرر المغرب العربي الكبير الواقع على أطراف الجناح الجنوبي للمعسكر الرأسمالي الغربي . ونضرب أمثلة على تلك الأهمية الاستراتيجية من أحداث هذا القرن العشرين :

أ - المعارك الفاصلة التي دارت رحاها فوق أرض الوطن العربي ؛ كمعارك قناة السويس في الحرب العالمية الأولى بين العثمانيين والانكليز ، ومعركة العلمين ومعارك ليبية وتونس بين دول المحور والحلفاء ، الذين حولوا الوطن العربي بعدها الى قاعدة جغرافية وبشرية للهجوم على الجناح الجنوبي للجيش الألمانية الإيطالية ، واستماعة الحلفاء بالكتائب المغربية العربية للاستيلاء على المواقع الحصينة في زحفهم شمالا نحو روما بعد أن فشلت جيوشهم في الاستيلاء عليها .

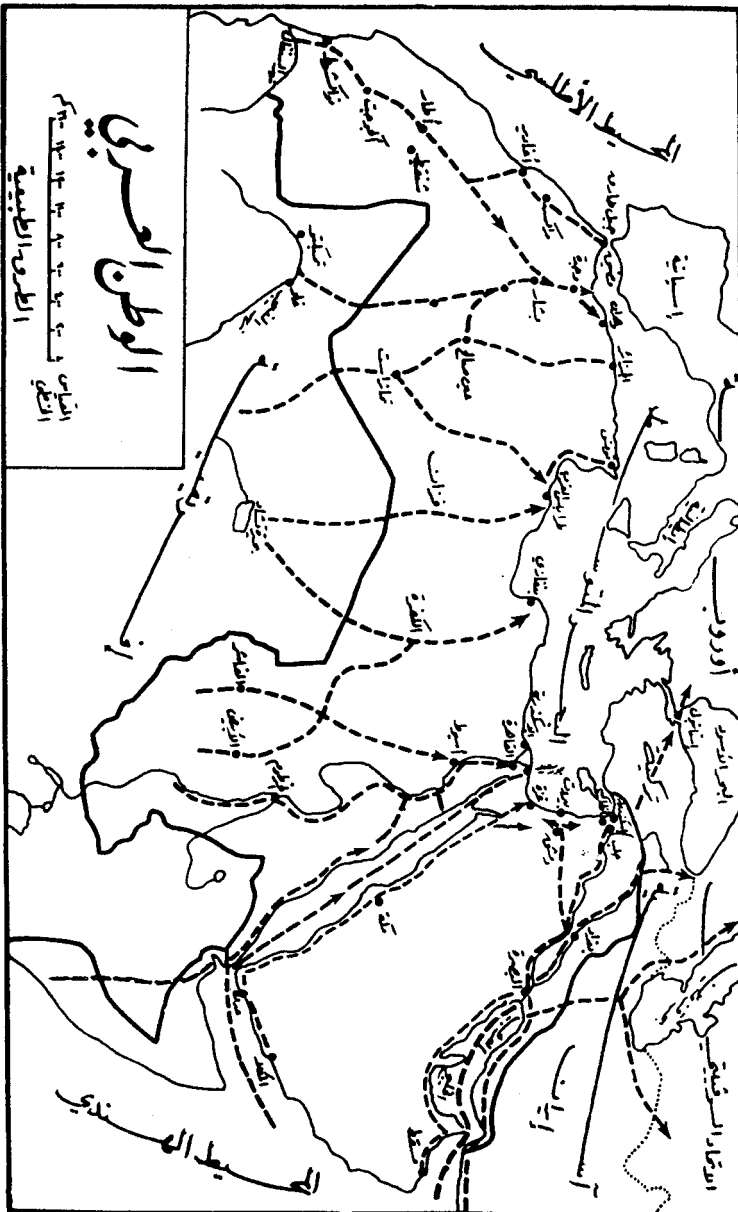
ب - الحرص الدائم للقوى الاستعمارية والامبريالية على اقامة القواعد البرية والبحرية والجوية على امتداد الوطن العربي أو من حوله بين المحيط والخليج ، بغض النظر عما ألغى منها أو بقي أو جُدد ؛ مثل القواعد الأمريكية السابقة في المغرب الأقصى وطرابلس الغرب والظهران ، والقواعد الأخرى كمصيرة في عمان ، وقاعدة الاسكندرون البحرية ، والقواعد البريطانية في مالطة وطبرق وقناة السويس وقبرص وعدن والبحرين والحبانية ، والقواعد الفرنسية في وهران وبنزرت والصحراء الجزائرية وجيبوتي . ويمكن اعتبار انشاء دولة اسرائيل فوق أرض

فلسطين احدى تلك القواعد الكبرى للقوى الاستعمارية وفي طليعتها الولايات المتحدة التي ما تزال تبحث عن قواعد جديدة وتسهيلات تستهدف ترسيخ وجودها الاسرائيلي الأمريكي ، وخاصة بعد اتفاق الصلح المنفرد بين مصر واسرائيل وأحداث ايران وافغانستان ، حيث عادت للسعي للفوز بقواعد جديدة في منطقة قناة السويس وسيناء ومصر العليا والصومال وكينية وعمان ، التي تشرف على مضيق باب السلام (هرمز) ، والبحرين . وهكذا نرى أن المسرح هو هو لم يتغير . الأرض العربية ، والهدف هو هو لم يتغير . تثبت الوجود الأجنبي والاستعماري الصهيوني في الوطن العربي رغم اختلاف الأساليب واختلاف الممثلين .

٢ - الطرق الطبيعية :

وهي تلقي أضواء على مجمل الموقع الوظيفي للوطن العربي ، تخطه بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وكان دورها بارزاً في جميع العصور ، وبرز فيها التكامل بين الطرق البرية والبحرية والنهرية ، سواء في الاتجاه أو المنحى أو التفرع أو الالتقاء . وأهم تلك الطرق من الشرق باتجاه الغرب :

آ - طريق الخليج العربي - ما بين النهرين « دجلة والفرات » : ومحور اتجاهه جنوب شرقي - شمال غربي ، واصلاً بين أقطار المحيط الهندي « بحر العرب » وآسية الصغرى والبحر المتوسط ، عبر العراق وشمال سورية . ويمثل مع تفرعاته مدخلاً الى الجزيرة العربية وايران والقوقاز وأوربة الجنوبية الشرقية . وقد كان هذا الطريق ، البحري - النهري ، وما زال ، أهم الطرق المطروقة في العالم ، وأكبر ملتقى للقوافل البرية والبحرية والنهرية (كل ثلاث دقائق تمر باخرة في مضيق باب السلام « هرمز ») ، وظل محط الأبصار عبر العصور ، وبوتقة حضارية أينعت ثماراً رائعة في العصور القديمة والوسطى كما أشرنا ، وفي العصر الحديث أصبح طريق القطارات والسيارات وأنابيب النفط ، وعليه يقع أقصر طريق بري بين أوربة والخليج العربي والمحيط الهندي . وقد حاول الألمان قبل الحرب العالمية الأولى جعله منافساً لقناة السويس التي يسيطر عليها الانكليز ، بل وضع مشروع قناة لربط الفرات بالبحر المتوسط ، بين مسكنة على الفرات وانطاكية على العاصي . وكان هذا التنافس أحد الأسباب التي دفعت الانكليز لاحتلال العراق في الحرب العالمية الأولى . وفي السنوات الأخيرة تزايدت أهمية هذا الطريق كطريق للسيارات ، بعد تعطل قناة السويس اثر العدوان الاسرائيلي ، واختناق الموانئ البحرية



التي تنتهي اليها السفن القادمة من أوربة ، بسبب التطور الكبير في العلاقات التجارية .

وقد عرقل من تطور هذا الطريق ، ضم تركية للجزيرة العليا وكيلىكية ولواء الاسكندرونة في الشمال ، وضم ايران لعربستان وبعض جزر الخليج في أجزائه الجنوبية .

ومن أبرز الأمثلة على الأهمية الاستراتيجية لهذا الطريق قيام الحلفاء، خلال الحرب العالمية الثانية ، بنقل ما زنته خمسة ملايين طن من العتاد والمؤن الى الاتحاد السوفيتي ، بين موانئ عربستان وشواطئ بحر قزوين وبلاد القفقاس . كما أنه مؤهل بصورة مثالية لنقل نفط الخليج العربي والعراق وسورية الى شواطئ البحر المتوسط وأوربة . وقد تم فعلا تمديد عدة أنابيب لنقل النفط من العراق خاصة الى الاسكندرونة وبانياس وطرطوس وطرابلس ، وكان حراً بالكويت والعربية السعودية أن تمدد أيضاً أنابيب نفط جديدة ، لنقل كميات أكبر من نفطها الى البحر المتوسط ، ضمن استراتيجية عربية خاصة .

ب - طريق البحر الأحمر - قناة السويس :

ويصل المحيط الهندي بالبحر المتوسط عبر البحر الأحمر وقناة السويس . وكان حراً بالعرب أن يسبقوا عليه طابعاً عربياً داخلياً لأنه يمتد بكامله داخل الأرض العربية ، بين شبه الجزيرة العربية والقرن الافريقي وحوض النيل . وهو مكمل للطريق الأول في اتجاهه من شرق البحر الأحمر مع سهول تهامة وحول خليج العقبة ، نحو جنوب بلاد الشام وسيناء ، حيث كانت تتم رحلات الصيف والشتاء بين الشام واليمن ، وحتى شاطئ البحر المتوسط . وفي غربه ينفذ الى طريق وادي النيل (بور سودان - القصير - السويس) المؤدي الى مصر والبحر المتوسط أيضاً .

وقبل شق قناة السويس ، وقبل تسلط القوى البحرية الأجنبية على البحر الأحمر كان الطريق برياً . وكان البحر الأحمر يستعمل غالباً في النقل والانتقال بين شواطئه الشرقية والغربية . وكان النشاط كبيراً لدرجة أطلق معها اسم الصحراء العربية على الهضبة الواقعة بين وادي النيل والبحر الأحمر ، ثم غلب الطريق البحري خلال القرن التاسع عشر . وهو لم يقض على الطريق البري فحسب بل سدد ضربة قاسية لطريق رأس الرجاء الصالح البحري ، اذ يختصر ٥٥ - ٧٠٪ من المسافة بين أقطار المحيط الهندي من جهة ، وأقطار البحر المتوسط من جهة أخرى ، ونسبة

٢٤ - ٤٢٪ من المسافة بين الشرق الأقصى وأقطار المحيط الهندي ، وأوربة الغربية .

والدليل على الأهمية الاستراتيجية لهذا الطريق أن اغلاق قناة السويس بسبب العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ كان يكلف بريطانيا وحدها خسارة قدرها عشرون مليون جنيه استرليني شهرياً ، في حين أن الفائدة التي كان يجنيها قطر المصري من القناة لم تكن تتجاوز عشرة ملايين جنيه استرليني شهرياً . وقد تعرض هذا الطريق للتهديد المباشر باحتلال اسرائيل لفلسطين ومداخل خليج العقبة وسيناء وقناة السويس ، وتمديدها انبواباً كبيراً لنقل النفط بين ايلة وشاطئ البحر المتوسط في عسقلان بطاقة أربعين مليون طن ، ردت عليه مصر بتمديد خط أنابيب بين شاطئ خليج السويس وغربي الاسكندرية بطاقة مماثلة ، كما تحاول تعميق قناة السويس لاستقبال حاملات نفط متوسطة الحمولة رداً على منافسة طريق رأس الرجاء الصالح الذي تستخدمه ناقلات نفط عملاقة ، تصل حمولتها الى نصف مليون طن .

ج - طريق وادي النيل :

وهو طريق طبيعي بين افريقية الاستوائية والشرقية والبحر المتوسط ، وكان لهذا الطريق وظيفتان ؛ الأولى تجارية والثانية حضارية ، ففيه أينعت الحضارة المصرية القديمة ، ومنه ولج العرب قلب القارة حاملين ثقافتهم وتجارتهم قبل الاسلام وبعده . وقد اتبع المستعمرون ومستكشفو القارة الافريقية الطريق نفسه ، الذي يعتبر رديفاً لطريق البحر الأحمر - المتوسط ، كما كان أحد الطرق الآمنة للحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، والحلقة الرئيسية في مشروع بريطانيا القديم القاهرة - رأس الرجاء الصالح .

د - الطرق العابرة للصحراء الكبرى :

وتصل بين افريقية السودانية وشواطئ البحر المتوسط في اتجاه عام شمالي - جنوبي . وهي تعتمد على قواعد الواحات المبعثرة داخل الصحراء الكبرى . وتوفر هذه الطرق مشقة السير على طول افريقية السودانية حتى شاطئ المحيط الأطلسي لتنتقل الى أوربة ، وتعتمد على توسطها بين اقليمين انتاجيين مختلفين تماماً ؛ الاقليم المداري في الجنوب ، والمتوسطي والمعتدل في الشمال (الفواكه المدارية ، العاج ، ريش النعام ، الذهب ، الرقيق ، القمح ، الملح ، البلح ، المواد المصنوعة عامة) .

وأهم تلك الطرق :

— طريق كردفان — الكفرة — برقه ، أو كردفان — اسيوط في وادي النيل •

— طريق تشاد — طرابلس الغرب أو برقة ، عبر فزان أو الكفرة • وهو أقصرها •

— طريق غاو — تمبكتو (نهر النيجر) — المغرب العربي بأقطاره الثلاثة •

وكانت لتلك الطرق ، منذ القديم وحتى العصور الوسطى ، أهمية حضارية وتجارية ، أدت الى نهضة مناطق غانة ومالي والنيجر وتشاد ، وعلى أثرها شقت طرق حديثة : النيجر — الجزائر ، تشاد — طرابلس الغرب • وقد استغلت الأهمية الاستراتيجية لهذه الطرق ، وبخاصة عندما تكون الطرق البحرية مهددة ، كما في الحركة التكتيكية التي قام بها الجنرال ليكليرك الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية ، التي عبر فيها بقطعاته الصحراء من تشاد الى فزان فالشمال الليبي ليهدد الجناح الجنوبي لجيوش المحور •

وازدادت أهمية هذه الطرق في الآونة الأخيرة لوجود أحواض نفط وثروات معدنية كبيرة عند محاورها ؛ في ليبيا والجزائر وموريتانية والمغرب •

* * *